الفن الصخري .. لوحات وتاريخ

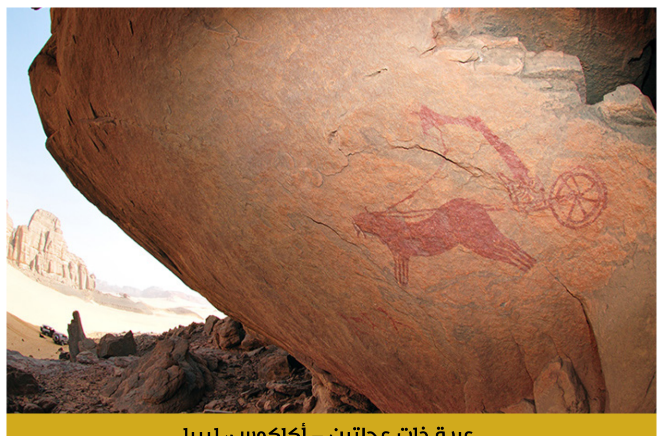
في سنة 1850 كان الرحالة الألماني الشهير (هنريك بارث) يقيم مخيما في منطقة (الزيغن أو تلزاغن) بجنوب ليبيا، عندما انتبه بالصدفة لوجود نقوش ضخمة قرب مخيمه، قاده ذلك إلى مزيد من التجوال والبحث في المنطقة التي أصابته بالذهول والدهشة من جمال ما رأى، فدوّن في رحلته كثيرا مما رآه وكتب ملاحظاته العلمية حولها، وحسب باول جراتسيوسي يمكن اعتبار رحلة بارث هذه أول رحلة عملية معروفة للنقوش الصخرية في ليبيا وقد كتب هنريك بارث مُبديا إعجابه الشديد:- (يبدو أن الرسام قد وضع أمام عينيه موضوع رسوماته مما جعله قادرا على تصويرها على صخور الوادي بكل دقة وبراعة فائقة) واستنتج من رحلته عدة ملاحظات علمية لا زالت محل اهتمام إلى اليوم منها أن الصحراء كانت بالفعل غابات أو قابلة لعيش حيوانات كالزرافات والفيلة فيما مضى، وأن الرسوم والنقش على الصخور في ليبيا كان سابقا للكتابة بلغة التيفيناغ.

بعد بارث بنحو ثمانين سنة كانت تلك المنطقة هدفا لعالِم السّلالات البشرية الألماني (فروبينوس) الذي قدم خصيصا لمشاهدة تلك النقوش الصخرية، وكنت مُندهشا : (لقد تم نقش هذه الصور بيد بارعة وماهرة وخبيرة كان لها دراية كبيرة بمثل هذا النوع من الأعمال الفنية).

ومنذ ذلك الحين أصبحت النقوش الصخرية في ليبيا مكانا هاما للبعثات العلمية والكشفية، وزارها مئات البعثات والأساتذة المتخصصين وأعدوا دراسات خاصة بها ظلّ مُعظمها غير مترجم، ولم تلق هذه المعارض الفنية المفتوحة الاهتمام اللائق بها محليا، و فيما يلي بعضٌ من تلك النقوش...

مركبات في الصحراء

منذ مدة طويلة يقوم فريق متخصص من المتحف البريطاني بمشروع اطلق عليه (the African rock art image project) وهو مشروع يهتم بالفن الصخري في صحراء أفريقيا، تَضمّن دراسات وبحوثا وتوثيقا منقطع النظير، وقد نشر موقع المتحف على الإنترنت تقارير كثيرة عن الفن الصخري، منها تقرير عن عربات الصحراء.


عربة ذات عجلتين – أكاكوس، ليبيا

في المتوسط وثق المتحف نحو 500 نقش صخري تَضمّن صور لتلك العربات التي قد تعود لأكثر من 3000 سنة مضت، معظمها في منطقة فزان بليبيا، بينما وُجد بعضها في النيجر ومناطق مجاورة.

وُجُود هذا العدد الكبير من النقوش في الصحراء الليبية أثار عدة أسئلة مُحيّرة عن استخدامها في بيئة صحراوية قد لا تكون ملائمة للسير بالعجلات، وتعتبر العربة ذات العجلات أحد الاختراعات العظيمة في التاريخ الإنساني، وقد كانت تستخدم على نطاق واسع في العالم القديم، من الآشوريين إلى الصينيين وروما وأثينا


من معروضات المتحف البريطاني، نموذج لعربة رومانية

ومصر وليبيا وبلاد كثيرة وُجدت فيها آثار تدل على أنها أماكن أُستخدمت فيها هذه التقنية، ووفرت العربات وسيلة نقل سريعة للبضائع والبشر أمّا من الناحية العسكرية وفرت قوة وحماية أكبر للمقاتلين.

مـن الناحيـة التاريخيـة يُخبرنـا هـيرودوت عـن أن الإغريـق ربمـا تعلمـوا هـذه التقنيـة مـن ليبيـا، مشـيرا إلى الجرمنـت الذيـن وصفهـم بالأمـة العظيمـة، جـرى دائمـا الربـط بـين الجرمنتيـين واسـتخدام هـذه العربـات في ليبيـا سـلما وحربـا كـما أشـار إلى ذلـك تشـارلز دانيلـز وآخـرون ممـن قامـوا بالبحـث والتنقيـب وأعـادوا سـبب عـدم احتفـاظ الصحـراء بعربـات كاملـة لأسـباب بيئيـة.

وقـد تـمّ إعـادة ترميـم وتركيـب عربـة واحـدة معروضـة في مُتحـف طرابلـس، ولكـن ليـس مـن المؤكـد أنهـا مـن ذلـك العصـر أو مـن مثيلاتهـا، وقـد أثـار هـذا بعـض الشـكوك مـن كـون النقـوش قـد لا تكـون مرتبطـة بواقـع اسـتخدامها، لكـن نظـرا لكـثرة تلـك النقـوش في مسـاحة جغرافيـة واحـدة يصعـب تخيـل ذلـك، يفـترض البعـض حسـب مـا ذكـر تقريـر المتحـف البريطـاني أنهـا أُسـتخدمت عـلى نطـاق محـلي كوسـيلة نقـل في المسـافات المتوسـطة والقصـيرة، ويذهـب الكثـيرون الى امكانيـة أنهـا أُسـتخدمت حتـى لاخـتراق الصحـراء لمسـافات طويلـة وحتـى في الحـروب.

ويقول باول جراتسيوسي مؤلف (دليل الفن الصخري):
(إن مثـول العربـات الحربيـة للعيـان مـن بيـن النقـوش الفزانيـة يسـمح بـكل سـهولة بإرجـاع المرحلـة التي تعود إليهـا حتـى اكتشـافها، إلـى جرمنـت هيـرودوت الذيـن كان قد أشار إليهـم المـؤرخ الإغريقـي بقولـه: كانـوا يطـاردون الأثيوبييـن البدائييـن سـكان الكهـوف بواسـطة عربـات تجرهـا أربعـة خيـول ...).

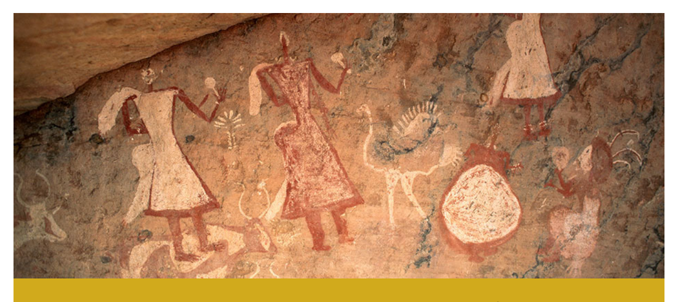
يُذكـر أن بـاول قـد صنّـف نقـوش الفـن الصخـري في ليبيـا إلى ثـلاث مراحـل أساسـية هـي: مرحلـة القـوم الصياديـن ومرحلـة الرعـاة ومرحلـة الجرمنـت.



من معروضات متحف طرابلس – الصورة من Liviu



كـما يبـدو في الصـور المُلتقَطـة في أكاكـوس، فـإن حيوانـات عـدة كالأبقـار والثـيران أُسـتخدمت لجـر العربـات حسـب التغـيرات المناخيـة ووفـرة أنـواع الحيوانـات، ولم يقتصـر الأمـر عـلى الخيـول فقـط،



صورة من منطقة أكاكوس – نقوش توضح نشاطات بشرية، رسم لنعامات وبعض الحيوانات الأليفة

تنتـشر في أكاكـوس ومناطـق أخـرى جنـوب ليبيـا صـور لثـيران أليفـة وأبقـار، أحيانـا عـلى هيئـة قطعـان وأحيانـا منفـردة، ويُشـير جراتسـيوسي أن هـذا النـوع مـن الرسـوم يُوثِّـق لمرحلـة مـا بعـد الصياديـن، وهـي فـترة البـشر الرعـاة التـي انتقـل فيهـا الانسـان هنـاك مـن الاعتـماد عـلى الصيـد إلى الاعتـماد عـلى الرعـي.



تنتـشر صـور للفيلـة في مناطـق الأوريـر EL AURIR، وإريكـين ARRICHEN، ووادي ماتخندوش WADI MATKHANDOUSH، وغيرهـا مـن أماكـن النقـوش الصخريـة في جنـوب ليبيـا مـما يـدل عـلى أنهـا كانـت تعيـش بكـثرة هنـاك.



كانوا يرقصون ! لوحة من فينيت – وادي عكي EKKI لمشاهد بشرية لمجموعة من الناس في حالة رقص حيث يُلاحَظ حيوية الحركة

إن الصحـراء الكبـرى كانـت غابـات خضـراء وإحـدى مواطـن هـذه الحيوانـات قبـل أن تضطًـر للهجـرة بسـبب التغيّر المناخي والجفاف، ويشـير جراتسيوسي أن الصـورة ربمـا تعـود لفتـرة البشـر الصياديـن حيـث امتهـن السـكان قديمـا هنـاك مهنـة الصيد كأسـلوب أساسـي لحياتهـم.

مصــادر

- دليل الفن الصخري / باول جراتسيوسي
- لوحات تاسيلي / هنري لوت
- Chariots in the Sahara / The British museum
- منشورات تاوالت